الطبيب الصيدلاني الأندلسي

حامد بن سَمْحون

وريادته في التصنيف الموسوعي في الأدوية المفردة

الأستاذ فاضل السباعي

لعل أطول ترجمة للطبيب الصيدلاني الأندلسي « ابن سمحون » ، اشتملت عليها كتب الطبقات العربية ، هي تلك التي أوردها ابنُ أبي أصيبعة ... يقول :

« ابن سمجون [بالجيم المعجمة] . وهو أبو بكر ، حامد بن سمجون . فاضل في صناعة الطب ، مُتميّز في قُوى الأدوية المفردة وأفعالها ، مُتقِن لما يجب من معرفتها . وكتابه في الأدوية المفردة مشهور بالجودة ، وقد بالغ فيه وأجهد نفسه في تأليفه ، واستوفى فيه كثيراً من آراء المُتقدمين في الأدوية المفردة .

وقال أبو يحيى اليَسَع بن عيسى بن حَزم بن اليسع في كتاب (المعرب عن محاسن أهل المغرب) : إن ابن سمجون ألف كتابه هذا في أيّام المنصور الحاجب محمد بن أبي عامر . أقول : وكانت وفاة محمد بن أبي عامر في سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة .

ولابن سمجون من الكتب : كتاب الأدوية المفردة ، [و] كتاب الأقرباذين »[1] .

---

(١) ابن أبي أصيبعة : « عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء » ، ص : ٥٠٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم كان ما ورد عنه ، في بعض المصنّفات القديمة ، لا يعدو ذكْراً لاسمه في جُمَل عارضة .

فمن ابن سمحون (أو سمجون) ؟ وما أعماله ؟

وقبل ذلك : ما العصر الذي أظلّه من أعْصُر الحضارة العربيّة الإسلاميّة ؟

ازدهار الطب النباتي في الأندلس :

بعد عصر الترجمة (القرن الثالث للهجرة / التاسع الميلادي) ، انطلق الفكر العربي يجوب آفاق « العلم »[٢] . وكان مما استوعبه الأجداد وأقبلوا على التصنيف فيه : علمُ الطبّ والصيدلة ، ولم يكن قد آن للصيدلة أن تنفصل عن توأمها ، الطب .

وبدا أن الأندلس كانت على موعد مع وصول كتاب ديسقوريدس (المقالات الخمس) إليها[٣] ، هديّة من قسطنطين السابع إلى عبد الرحمن الناصر ، ثم – بعد عامين (٣٤٠هـ/ ٩٥١م) – وصل ، قادما من القسطنطينيّة ، الترجمان الطبيب الراهب نقولا ، الذي كان يعرف – عدا لغته الإغريقيّة – اللغةَ الثانية التي يتكلمها كثير من الأندلسيين : اللاتينيّة .

وسرعان ما تألفت في قرطبة ، « لجنة » من علمائها ، من سبعةِ أطبّاء[٤] ، وأخذوا يتداولون مع الترجمان الطبيب نقولا مضمونَ كتاب

---

(٢) أعني : العلوم بمفهومها اليوم Les Sciences .

(٣) وهو كتاب ، كما يقول عنه ابنُ جلجل ، « مصوّرُ الحشائش بالتصوير الروميّ العجيب ، وكان مكتوبا بالإغريقي » .

(٤) أحدهم عبد الرحمن بن الهيثم ، الذي دار عليه بحثُنا في المؤتمر السنوي الثالث عشر لتاريخ العلوم عند العرب (إدلب ، أيار / مايو ١٩٩٠) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ديسقوريدس ، وهم يهدفون إلى « تفسير » مضمونه ، بمعنى فهمه فهما صحيحا (وليس نقلَ نصّه الإغريقيّ إلى العربيّة) .

وإذا كان أحدهم – ابنُ الهيثم – قد شرع في التأليف في هذا الباب الذي تعمّقه ، فأثمر كتابه ذاك الذي كشف فيه عن أخطاء تبيّنها في كتاب معاصره ابن الجزّار القيرواني في الأدوية المفردة المسمّى (الاعتماد) – وقد وصلت توّاً نسخة منه إلى الأندلس – وسمّاه : (الإيجاز والاقتصاد في خطإ ابن الجزار في الإعتماد) ، فكان بذلك أول من ألّف بالطبّ النباتيّ في الأندلس .

أقول : إذا كان ابن الهيثم قد سجّل لنفسه هنا الخطوةَ الرائدة ، فإن معاصره ابن جلجل ، الأصغر منه سنّا[٥] ، قد عمد إلى « تفسير » أسماء أدوية ديسقوريدس ، بأن جعل – في رسالة له بالغة الأهميّة – اسمَ كل دواء منها باليونانيّة وإلى جواره ما يُقابله بالعربيّة ، وأحيانا بالبربريّة وبعجميّة الأندلس ، فجاءت رسالته هذه أشبه بمعجم نباتيّ طبّي ، لعله الأول في نوعه بلغتنا العربية !

ثم بدا أن ابن سمحون ، معاصرَ ابن جلجل والذي يُناهزه سنّا ، قد تجاوز ما حقّقه بَلَدِيّاه القرطبيّان ، فصنّف كتابه الحافل : (الأدوية المفردة) !

من ابن سَمْحُون ؟

اسمه – كما ورد عند ابن أبي أصيبعة – « أبو بكر حامد بن

(٥) وُلد ابن جلجل في سنة ٣٣٢ هـ . وأقدّر أن مولد ابن الهيثم يعود إلى مطالع القرن الرابع الهجري ؛ بحثي : « الطبيب القرطبي ابن جلجل وعصر ازدهار الطب في الأندلس » ، (المؤتمر السنوي الثاني عشر لتاريخ العلوم عند العرب طرطوس ، أيار ١٩٨٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سمجون » (بـا لجيم المُعجمـة) ؛ ألّف كتـابه (الأدوية المفردة) في أيام الحاجب المنصور (حُكْمُه من ٣٦٦ – ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م) ، وله كتاب آخر بعنوان (الأقرباذين) .

ولم ترد ترجمة لابن سمحون في كتـاب معاصره ابن جُلْجُـل : (طبقات الأطبّاء والحكماء)[٦] ، لعل ذلك لأن طبيبنا ، ابن سمحون ، لم يكـن قـد صَـعـد نجمُـه في ذلك الوقت ، أو لأسبـاب أخرى . ولكن ما يُستغرب أن يُغفِـل الترجمةَ له القاضي صـاعد الطليطلي (المتوفّى سنة ٤٦٢هـ) في كتابه الجامع لتراجم العلماء : (طبقات الأمم) .

ثم كان طريفا أن ترجمة ابن سمحون لا تصل إلينا – بعد إغفال قومه له ! – إلا عن طريق المؤرخ الدمشقيّ ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) ، هذه الترجمة التي استمدّها من كتاب – ضاع فيما يبدو – لمؤرخ أندلسي هو « أبو يحيى ، أليسع بن عيسى بن حزم » (ت ٥٧٥هـ) ، كان قد جاء إلى مصر ، وعاش في كنف السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وألف له كتابا بعنوان (المُعْرِب عن محاسن أهل المغرب) .

وفي رسم اسمه : ورد – في نُقول ابن البيطار عنه في كتابه : (الجامع لمفـردات الأدويـة والأغذيـة) – بالحاء المهمـلة : « ابن سمحون » (وهو ما آخُذُ به) ، مع أن معظم الباحثين تابعوا ابنَ أبي أصيبعة في رسمه بالجيم ، ومنهـم لوسيـان لوكليرك (الذي شـدّ ما اعتمد في كتـابه « تاريخ الطبّ العربي » على مؤرّخنا الدمشقيّ) ، فرسمه Ebn Samadjoun[٧] ؛ وكذلك المَقّري في (نفح الطيب) ، ثم الزركلي في (الأعلام) وكحّالة في (معجم

---

(٦) هذا الذي فرغ من تأليفه في صدر سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م .

(٧) Lucien Leclerc: Histoire de La Médecine Arabe, T. 2: 436.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المؤلّفين) ، وآخرهم : محمد العربي الخطابي في (الطبّ والأطباء في الأندلس الإسلاميّة) .

وممّا يجدر التنبيه إليه أنّ الحُمَيدي (ت ٤٨٨هـ) أورد في كتابه ما نصّه : « حامد بن سمجون [بالجيم] ، له تصرّف في البلاغة ، وكتاب في البديع ، ذكره أبو عامر بن شُهَيد وأثنى عليه »[٨] ؛ ثم بعده الضَبّي (ت ٥٩٩هـ) ، الذي أورد في كتابه النصّ ذاته ، ولا اختلاف إلا في إهماله نقطة الجيم[٩] .

فهل كان صاحبُنا ، الطبيب الصيدلانيّ ، متعدّدَ المواهب ، عالماً بالبلاغة والبديع أيضاً ، فذَكره فيهما بعضُ المؤرخين الأندلسيّين ، مُغفلين تصرّفَه في فنونه الأخرى ؟ يُؤيّد ظنّنا أنّ مخطوطته التي بين أيدينا فيها استشهاد بالشعر على غير ما يجري عليه الأطبّاء عادة[١٠] !

كتابه : الأدوية المفردة :

في تتبعي لهذا العالم المغمور ، عرفتُ أن قطعةً من كتابه : (الأدوية المفردة) ، أو جزءا منه ، محفوظٌ في المتحف البريطاني (بالرقم (11614 P

---

(٨) « جذوة المقتبس » : الترجمة ٣٨٦ ، ص ١٩٧ .

(٩) « بغية الملتمس » : الترجمة ٦٦٨ ، ص ٢٧٢ .

(١٠) ففي مفردة « الحُمّاض » – على سبيل المثال ، هذه التي كثُر فيها القول في كتب المفردات العربيّة – يبدأ ابن سمجون بأن يورد ما قاله ابن السّكّيت (ت ببغداد ٢٤٤هـ) من أنّ الحُمّاض : « نَبْتٌ له نُوارٌ أحمر أشبه بعُرف الديك » ، ثم يستشهد بقول الشاعر :

ماذا يُؤرّقني ، واليوم يُعجبني ... من صوت ذي رَعَثاتٍ ، ساكن الدار ؟
كأنّ « حُمّاضةً » في رأسه نبتتْ ... من آخر الصيف ، قد هَمّتْ بإثمار !

مخطوطة « الأدوية المفردة » : اللوحة ٩٤/ ب . و « رَعْثة » الديك : ما فوق عنقه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

15705) ؛ وقد حاز المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب بالكويت صورة عن هذا الجزء ، فزوّدني – مشكورا – بمصوّرة عنها على شكل « ميكرو فيلم » .

في الصفحة الأولى من هذه المخطوطة ، التي تتألف من أكثر من مئة ورقة (كلّ ورقة من صفحتين) ، أنها : « الجزء الثاني من الأدوية المفردة ، تأليف الشيخ الإمام أبي بكر حامد بن سمحون » .

وقد رتّب المؤلّف « مفردات » كتابه على الأبجديّة (لا على الأحرف الهجائيّة) .

* وبدا أنّ الجزء الأول ، الغائب ، يحتوي على الأحرف الستّة الأولى (أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، و) ،

* ويُفترض أن يحتوي ، هذا الجزء الثاني ، على الأحرف الستة الثانية (ز ، ح ، ط ، ي ، ك ، ل) ، أولها « زنجبيل » وآخرها « لزّاق الذهب » ،

* « ويتلوه ، في الجزء الثالث ، حرف الميم ، إن شاء الله ، وأوله : مسك » ...

وقد توزّعت المفردات ، في الجزء الثاني ، على هذا النحو :

حرف الزاي : ٤١ إحدى وأربعون مفردة (في ٤٧ ورقة مزدوجة الصفحات) ،

حرف الحاء : ٨٥ خمس وثمانون مفردة ، وقد تزيد على ذلك ! (في ٦٧ ورقة مزدوجة الصفحات) ،

أحرف الطاء والياء والكاف : أوراقها مفقودة !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حرف اللام : ليس فيه إلا الورقة الأخيرة ، وهي آخر الجزء ، وفيها ثلاث مفردات .

مفردة « الزنجبيل » :

في المادة الأولى ، من هذا الجزء ، « زنجبيل » ، أحصيتُ فيها ثلاثا وثلاثين معلومة قدّمها المؤلّف عن الزنجبيل ، على ترتيب من النواحي التالية : التعريف بالزنجبيل ، تبيان أصنافه ، مصدره ، ما يُستحسن في صفاته ، قوّته في الحرارة وفي الرطوبة ، منفعته ، أوجه استعماله ، طريقة حفظه ، ما يُستبدَل به حين افتقاده .

وهذه المعلومات منسوبٌ كلّ منها إلى قائله ، من الأطبّاء والنباتيّين والعلماء ، وهم :

من اليونانيّين : ديسقوريدس (أربع مرات) ، جالينوس (٣) ،

من المسلمين وسائر العرب : إسحاق بن عمران البغدادي (٤ مرات) ، ابن الجزّار القيراواني (٤) ، ابن ماسة البصري (٣) ، أبو حنيفة الدينَوَري (٢) ، دونش بن تميم (٢) ، إسحاق بن سليمان الإسرائيلي (٢) ، المسيح بن الحكم الدمشقي (٢) ، الرازي (٢) ، ومرةً واحدة لكلٍّ من : ابن ماسويه ومحمد بن حسن الطبري (!) ولمن أشار إليه بـ « بعض الأطبّاء » ، ومرتين لعالِم أو اثنين تتعذّر قراءة اسميهما لطمس فيهما !

أسبقيّته في هذا التصنيف :

أستطيع القول إنّ ابن سمحون قد سجّل لنفسه أسبقيّةً تتجلّى في أنه أولُ مَن أقبل – في علمي – على تصنيف كتب المفردات الطبيّة تصنيفاً موسوعياً في الأندلس ، وأنه كذلك أول من اتّبع في هذا التصنيف طريقةَ أن يورد المفردة ثم يُدرج تحتها كلّ ما وصل إلى علمه عنها من معلومات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتقصّاها في كتب الأوائل والمعاصرين ، ناسبا كلّ معلومة إلى صاحبها ، ومضيفا إليها ما استجدّ أو ما صحّ ، عنده ، من آراء فيها ، يُقدّم لها عادة بكلمة « لي »[١١] !

وذلك كلّه ما اتّبعه ، فيما بعد ، ابنُ البيطار في كتابه الموسوعيّ « جامع المفردات .. » (القرن السابع للهجرة) ، والذي ظنّ معه الطبيبُ المستعرب ماكس مايرهوف أنّ ابن البيطار قد أخذ ذلك عن أبي جعفر الغافقي في كتابه في الأدوية المفردة (القرن السادس) ... على حين أنّ ابن سمحون كان السابقَ إلى ذلك قبل مئتي سنة من الغافقي ، وثلاثمئة من ابن البيطار !

المصادر والمراجع

ـ ابن سمحون ، أبو بكر حامد (تُوفي بعد سنة ٣٩٢هـ) : مصوّرة مخطوطة كتابه « الأدوية المفردة » (قطعة منها) ، من محفوظات المتحف البريطاني .

ـ الحُمَيْدي ، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي (ت ٤٨٨هـ) : « جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس » ، الدار المصريّة للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦ .

ـ الضبّي ، أحمد بن يحيى بن عُميرة (ت ٥٩٩هـ) : « بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس » ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٦ .

ـ ابن البيطار ، ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد (ت ٦٤٦هـ) : « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » (أربعة أجزاء في مجلدين) ، طبعة مصوّرة (عن طبعة بولاق ١٢٩١هـ/ ١٨٧٥م) ، دار المدينة (؟) ، د . ت .

---

(١١) ممّا أورده ، في مفردة « حَنْدَقوق » ، قولُه ، مُصحّحا للفاضلين الإغريقيّين : « لي : الحندقوق المصريّ ـ الذي يزعم ديسقوريدس وجالينوس أنّ بزره يُتّخذ منه خبزٌ ـ وهو النيلوفر عندي ، لأنّ ديسقوريدس سمّاه لوطس المصريّ ووصفه بصفة النيلوفر ، ولوطس أيضا هو الحندقوق ، وكلّ واحد بعيدُ الشبه عن الآخر في صورته وقوته ، وإنما ( ) كان في الاسم فقط » . المخطوطة : ٦٨/ب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ـ ابن أبي أصيبعة ، موفّق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (ت ٦٦٨هـ) : « عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء » ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د . ت .

ـ المقّري ، التلمساني ، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ) : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » (ثمانية مجلدات ، آخرها فهارس) ، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨ ، المجلد الأول .

ـ Histoire de la Médecine Arabe (2 T.) : Lucien LECLERC (1816 – 1893) Paris 1876, Réédité Rabat (الرباط) 1980 .

ـ الزركلي ، خير الدين (ت ١٩٧٦م) : « الأعلام » (ثمانية مجلدات) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠ .

ـ كحّالة ، عمر رضا (ت ١٩٨٧م) : « معجم المؤلّفين » (١٥ جزءا ، الأخيران فهارس) طبعة مصورة : دار إحياء التراث العربي ، بيروت د . ت .

ـ الخطّابي ، محمد العربي تأليف وتحقيق : « الطبّ والأطبّاء في الأندلس الإسلامية » (مجلدان) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net